



28 مايو 2019

﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَنَابِتٍ تَفْسَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الزمر: من الآية 23).. ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر).. ﴿وَلَوْ أَنَّ فِرْعَانَ نَبَايَهِ الْمَلَائِكَةُ دَبَّتْ لَصَوْتُهُ لَمَنَعَ صَوْتَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَذُنٌ يُسْمِعُهَا لِيَسْمِعَ مِنْهُمْ بَلْ كَانَ لَهُمْ صُغُرٌ عَلَيْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزمر: من الآية 31).

قرأت هذه الآيات الكريمة فسيحت في أجليّ علوية، وتداعت المعاني بعضها إثر بعض؛ للكشف عن أثر هذا القرآن العظيم في النفوس والأرواح، لا بل في الجمادات ومختلف أنواع العوالم والكائنات.

قال أسيد بن الحضير: بنا هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده؛ إذ جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تُصيبه، فلما أخبره رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "أندري ما ذاك؟" قال: لا. قال: "تلك الملائكة دبت لصوتك، لو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم" (صحیح الإمام مسلم- كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب نزول السكينة لقراءة القرآن 1/548 رقم 796).

ولقد سمعتُ الجن آيات هذا القرآن الكريم فلم تتمالك نفسها أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (1) يَهْدِي إِلَى الرَّشِيدِ قَامَتًا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (2) (الجن)، وسمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً يقرأ سورة الطور فغشي عليه وحمل مريضاً إلى بيته وأخذ الناس يعودونه شهراً؛ تأثراً بما سمع (ذكره ابن رجب الحنبلي في كتاب التخويف من النار 1/30 دمشق 1399 هـ الأولى).

وجاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفاوضه في أمر رسالته ويعرض عليه المال والجاه والملك والسلطان ليدعها؛ فأجابه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بقول الله تبارك وتعالى: ﴿حَمَّ (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُضِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)﴾ (فصلت) إلى أن وصل إلى قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ ضَاعِقَةً مِثْلَ ضَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)﴾ (فصلت)، فرجع عتبة إلى قومه ترجف بوادره، حتى قال قائلهم: لقد رجع إليكم أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، ثم أقبل عليهم يقول: "والله، لقد سمعتُ كلاماً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، وإن له لطلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعقد، وما يقول هذا بشر". (انظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/132، وذكره أحمد بن الحسين البيهقي في كتاب الاعتقاد 1/267، وتفسير القرطبي 15/339).

وهكذا يفعل القرآن فعل السحر الحلال في الملائكة المقربين والجن - وهي الجن - والمؤمنين والكافرين، فيؤثر في كلٍّ موجودٍ، ويظل هكذا معجزة الوجود وآية الخلود.

وهل تغيّرت الأمة العربية في أنفسها وأوضاعها ومسالكها وطباعها بغير هذا القرآن الذي قادها إلى ما لم تكن تعرف، وجمعها على ما لم تألف حتى صارت آية بين الأمم ومعجزة بين الشعوب.

ولقد ألمَّ الرافعي - رحمه الله - بهذا المعنى إمامةً كريمةً، صاغها قلمه الملهم في هذه الكلمات: "وأنت إذا تدبّرت هذه القوة الروحية في آداب القرآن الكريم، واعتبرتها بمآناها في الطباع ومساعها إلى النفوس، واشتمالها على سنن الفطرة الإنسانية، فإنك تتبين من جملتها تفصيل تلك المعجزة الاجتماعية التي نهض بها أولئك العرب، فنفضوا رمال الصحراء على أشعة الشمس في هذا الشرق كله، فحيثما استقرت منها ذرة رفع وراءها عربي، وليس من دليل في التاريخ على أن هذه الأرض شهدت من خلق الله جيلًا اجتماعيًا كذلك الجيل الأول في صدر الإسلام حين كان القرآن غصًا طريًا، وكانت الفطرة الدينية موأية، وكانت النفوس مستجيبة على أنه جيلٌ تأقمن طباعه، وخالفَ عادته، وخرَجَ مما ألف، وخلق على الكبر خلقًا جديدًا.

ومع ذلك فإن الفلسفة كلها والتجارب جميعًا والعلوم فاطبة لم تنشئ جيلًا من الناس ولا جماعةً من الجيل ولا فئةً من الجماعة كالذي أخرجته آداب القرآن وأخلاقه من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في علوِّ النفوس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، وبسط الجناح، ورجاحة اليقين، وتمكين الإيمان إلى سلامة القلب، وانفصاح الصدر، ونقاء الدخلة، وانطواء الضمير على أظهر ما

عسى أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق، ثم العفة في مذاهب الفضيلة من حسن العصمة، وشدة الأمانة، وإقامة العدل، والذلة للحق، وهلم إلى أن نستوفي الباب كله، وهذا على كثرة عديدهم، وترادف تلك الآداب فيهم وتظاهرها على جميعهم واستقامتهم لها بأنفسهم، وإنما يكون مثل الرجل الواحد منهم في الدهر الطويل وفي الجيل بعد الجيل، وإنه على ذلك ليكون في الأرض في دَرّة الفلك، بل يحمل هذه الأرض مثال السماء؛ لأنه في نفسه مثال الملك" (أ. هـ).

"أما بعد"، فيا أيها المسلمون الصائمون القائمون..

ألا إنَّ هذا القرآن بين أيديكم كما كان بين أيديهم، تسمعون إليه كما كانوا يستمعون، وتقرءونه كما كانوا يقرءون، لم ينقص منه حرف، ولم تضع منه آية، ولم تتبدل فيه كلمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَخَافِطُونَ﴾ (9) (الحجر).. فما باله لم يفعل بكم ما فعل بهم، ولم يُعَيِّر منكم ما عَيَّر من أخلاقهم وأوضاعهم وطبائعهم؟!

ذلك لأنهم تلقَّوه مؤمنين، وقرأوه متدبرين، واستمعوا إليه طائعين، وأقبلوا عليه منغذبن، وأسلموه زمام النفوس والأرواح، وهو كيميأؤه التي لا تستعصي على فعلها العناصر، ولا يقف أمام فعلها جاحد أو مكابر، فأنشأهم قومًا آخرين، وجعلهم حجنه على العالمين.

وتستطيعون أن تكونوا كذلك إذا آمنتم بالقرآن إيمانهم، ونهجنتم به في أنفسكم وأوضاعكم نهجهم؛ فحللتم حلاله وحرمتهم حرامه، وأنفذتم أحكامه وتدبَّرتهم آياته، وسرتم بتوجيهاته، وكان هواكم تبعًا لما جاء به.. فهل أنتم فاعلون؟!

* سبق نشره في 26 سبتمبر سنة 2007، نقلًا عن جريدة الإخوان المسلمين اليومية، العدد (75)، السنة الأولى، 2 رمضان 1365هـ / 30 يوليو 1946م، ص (3).